لا يَحْزُنْكَ

تثبيت القلوب وبناء اليقين

كتبه:
أ.د. صغيّر بن محمّد الصغيّر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

من يتأمل القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه يكرر خطابًا عجيبًا لنبيه ﷺ، وكأنه يمسح به على قلبه كلما أثقلته هموم الدعوة، أو أحزنه عناد المكذبين، أو آلمه إعراض المعرضين، أو أقلقه انتشار الباطل، إنه النداء الرباني الحاني: ﴿**لَا يَحْزُنكَ**﴾. وكأن هذه الكلمة نسيم رحمة يهب على قلب النبي ﷺ كلما اشتدت عليه رياح الابتلاء، فهي ليست مجرد نهي عن الحزن؛ وإنما بناء لليقين، وإحياء للأمل، وربط للقلب بالله، وتعليم للأمة كلها أن طريق الحق لا يخلو من الآلام، ولكن لا ينبغي أن يخلو من الثبات.

والحزن في لغة العرب هو: الغم الذي يعتري القلب بسبب فوات محبوب أو حصول مكروه، قال ابن فارس: " **الحاء والزاء والنون**

أصـــلٌ واحد، وهو خشـــونةٌ في الشَّـــيء وشِـــدّةٌ فيه". [1] وقال الراغب الأصفهاني: **"والحُزْنُ: خشـونةٌ في النَّفسِ لما يَحصُل من الغَمِّ، ويُضادُّه الفَرَحُ".** [2]

فقوله تعالى: ﴿**لا يحزنك**﴾ معناه: لا تدع هذا الأمر يبلغ بقلبك مبلغًا يضعف عزيمتك أو يثنيك عن أداء رسالتك، فلا يستقر الحزن في قلبك استقرارًا يعوقك عن السير، ولا يتحول من شعور فطري إلى همٍّ دائم يفت في عضدك.

أما في الاصطلاح الشرعي، فليس المراد نفيَ الحزن من أصلِه؛ فإن الحزن من طبيعة البشر، وقد قال النبي ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم: «**إن العين تدمع، وإن القلب يحزن**» [3] وإنما المراد ألا يملك الحزن القلب، ولا يصرف صاحبه عن واجبه، ولا يكون ناشئًا عن ضعف الثقة بوعد الله أو سوء الظن بحكمته. ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: **"الحزن ليس من منازل السائرين،**

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/٥٤).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (صـ٢٣٣).

(٣) متفق عليه، أخرج البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

وإنما هو عارض يعرض للقلب"[1] فالمؤمن يحزن، لكنه لا يُقعده الحزن، ويتألم، لكنه لا ييأس، ويذرف الدمع، لكنه لا يفقد اليقين.

ثم إذا تتبعنا المواضع التي قال الله فيها لنبيه ﷺ: ﴿**لا يحزنك**﴾ وجدناها جاءت في صور متنوعة من الابتلاء، فكأن القرآن يرسم خريطة كاملة للأحزان التي تعترض طريق الدعاة والمصلحين، ثم يبين لهم كيف يتجاوزونها، فقال سبحانه: ﴿**ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئًا يريد الله ألا يجعل لهم حظًا في الآخرة ولهم عذاب عظيم**﴾[2]، فالمشهد هنا مؤلم؛ أناس يتسابقون إلى الكفر كما يتسابق غيرهم إلى الخير، وكأنهم وجدوا فيه بغيتهم، فيأتي الخطاب الإلهي ليقول: لا تجعل كثرتهم أو سرعتهم توقع في قلبك حزنًا أو شكًا، فإنهم لا يضرون إلا أنفسهم. قال الإمام الطبري: "**يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَلَا يَسُؤْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَلَا يَغُمَّكَ مُسَارَعَةُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْجُحُودِ بِكَ، وَتَكْذِيبِكَ، وَمُظَاهَرَةِ أَعْدَائِكَ عَلَيْكَ، مِنْ مُنَافِقِي**

---

(١) مدارج السالكين (١/٥٠٠-٥٠١) بتصرف.

(٢) [آل عمران: ١٧٦].

قَوْمِكَ، وَالْيَهُودِ، {إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا} بِمُسَارَعَتِهِمْ فِي ذَلِكَ". (١) وقال ابن كثير: "كَانَ يَحْزُنُهُ ﷺ مُبَادَرَةُ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ وَالشِّقَاقِ، فَقَالَ تَعَالَى: لَا يَحْزُنْكَ ذَلِكَ {إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ} أَيْ: حِكْمَتُهُ فِيهِمْ أَنَّهُ يُرِيدُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ". (٢)

فهذا تسلية للنبي ﷺ؛ لأن سرعة الناس إلى الباطل لا تدل على صحة الباطل. فكم من باطل راج، ثم ذهب كزبد السيل، وكم من حق حورب ثم بقي كالجبل الراسخ، والعبرة ليست بكثرة السائرين، وإنما بصحة الطريق.

ثم يقول سبحانه: ﴿**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا...**﴾(٣)، وهنا ينتقل القرآن من خطر الكفر الظاهر إلى خطر النفاق والتحريف، فالعدو قد يلبس ثوب الصديق،

---

(١) تفسير الطبري، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٧٦)، (٥/٧٤٨-٧٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٧٦)، (٢/١٧٣).

(٣) [المائدة: ٤١].

وقد يتكلم بلسان المؤمن وهو يطعن الدين من داخله. قال الإمام الطبري: "**وهذا تَسْـلِيةٌ مِن اللَّهِ تعالى ذكرُه نبيَّه محمدًا ﷺ مِن حزنِه على مُسارَعةِ الذين قصَّ قصتَهم مِن اليهودِ والمنافقين في هذه الآيةِ، يقولُ له تعالى ذكرُه: لا يَحْزُنْك تَسَـرُّعُهم إلى جُحودِ نبوتِك، فإني قد حتَمْتُ عليهم أنهم لا يَتُوبون مِن ضَـلالتِهم، ولا يَرْجِعون عن كفرِهم، للسـابقِ مِن غضَـبى عليهم، وغيرُ نافعِهم حُزْنُك على ما تَرَى مِن تسـرُّعِهم إلى ما جعَلْتُه سـببًا لهلاكِهم، واسـتحقاقِهم وعيدي**".[1] وقال القرطبي: "**وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ تَأْنِيسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَيْ: لَا يَحْزُنْكَ مُسَـارَعَتُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَكَ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ**".[2]

فالآية فيها تعليم للدعاة ألا يحزنوا من كثرة أهل النفاق؛ لأن الله يعلمهم وسـيجازيهم. فليس كل من نطق بالحق أراده، ولا كل من انتسـب إليه صـدقه، ولكن الله يتولى كشـف السـرائر، والداعية مأمور بالبلاغ لا بالتفتيش عن القلوب.

---

(١) تفسير الطبري، تفسير سورة المائدة، الآية (٤١)، (٨/٤٢٧).

(٢) تفسير القرطبي، تفسير سورة المائدة، الآية (٤١)، (٦/١٧٨).

ثم يأتي الموضع الذي يكشف مقدار الرحمة التي امتلأ بها قلب النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾.[1] إنها من أعظم آيات المواساة في القرآن؛ فالله سبحانه يخبر نبيه أنه يعلم ما يجده في قلبه، قبل أن يداوي ذلك الحزن. قال ابن عباس: "**وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ "الْأَمِينَ"، فَلَمَّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ كَذَّبُوهُ. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يُعَزِّيهِ: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ} أَيْ: لَا يَشُكُّونَ فِيكَ أَنَّكَ أَمِينٌ لَا تَكْذِبُ، {وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}**".[2] فهنا جاء الجواب الرباني: ليس العيب فيك، ولا النقص في دعوتك، وإنما هي قلوب أغلقتها الأهواء. قال ابن كثير: "**يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ} أَيْ: قَدْ أَحَطْنَا عِلْمًا بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ، وَحُزْنِكَ وَتَأَسُّفِكَ عَلَيْهِمْ ... {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ} أَيْ: لَا يَتَّهِمُونَكَ بِالْكَذِبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ،**

---

(١) [الأنعام: ٣٣].

(٢) تفسير القرطبي، تفسير سورة الأنعام، الآية (٣٣)، (٤١٦/٦).

{وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} أَيْ: وَلَكِنَّهُمْ يَعَانِدُونَ الْحَقَّ وَيَدْفَعُونَهُ بِصُدُورِهِمْ". (١)

ثم يقول تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢). فكم تؤلم الكلمات إذا خرجت من أفواه المستهزئين، وكم يشتد وقعها على أصحاب المبادئ، ولكن الله يرفع نظر نبيه من كلام الخلق إلى سلطان الخالق، ومن أصوات الناس إلى ملكوت السماء، فيقول: ﴿إن العزة لله جميعًا﴾. قال السعدي: "{وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} الدَّالُّ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّكَ. {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} فَسَيُعِزُّكَ وَيُعِزُّ دِينَكَ، وَيَنْصُرُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ. {هُوَ السَّمِيعُ} لِأَقْوَالِهِمْ، {الْعَلِيمُ} بِنِيَّاتِهِمْ وَ أَفْعَالِهِمْ، فَسَيَكْفِيكَهُمْ وَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"(٣) وقال الطبري: "{إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}، يَقُولُ: إِنَّ الْقُوَّةَ وَالشِّدَّةَ وَالْغَلَبَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، وَهِيَ بِيَدِهِ، يَعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ نَاصِرُكَ وَمُذِلُّهُمْ، فَلا يَهِيدَنَّكَ كَثْرَتُهُمْ، وَلا

(١) تفسير ابن كثير، تفسير سورة الأنعام، الآية (٣٣)، (٣/٢٥٠-٢٥١).

(٢) [يونس: ٦٥].

(٣) تفسير السعدي، تفسير سورة يونس، الآية (٦٥)، (ص٣٦٧).

يَحْزُنَنَّكَ قَوْلُهُمْ"[1] . فالجبال لا تهزها الرياح، والحق لا تنقصه ألسنة المبطلين.

ثم يقول سبحانه: ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾[2] وهنا يحرر القرآن قلب الداعية من حملٍ ليس له؛ فليس عليه هداية الناس، وإنما عليه البلاغ. قال ابن كثير: "يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: {وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ} أَيْ: لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ فِي كُفْرِهِمْ بِكَ وَتَكْذِيبِهِمْ لَكَ، فَإِنَّ قَدَرَ اللَّهِ نَافِذٌ فِيهِمْ، وَإِلَى اللَّهِ مَرْجِعُهُمْ {فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا} أَيْ: فَنَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ"[3] فمن أدى ما عليه فقد برئت ذمته، أما القلوب فبين إصبعين من أصابع الرحمن.

ويختم هذا النسق بقوله تعالى: ﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾[4] قال الطبري: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى قِيلِ ذَلِكَ الْحَسَدُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي

---

(١) تفسير الطبري، تفسير سورة يونس، الآية (٦٥)، (١١/١٣٧-١٣٨).

(٢) [لقمان: ٢٣].

(٣) تفسير ابن كثير، تفسير سورة لقمان، الآية (٢٣)، (٦/٣٤٤).

(٤) [يس: ٧٦].

جِئْتَهُمْ بِهِ لَيْسَ بِشِعْرٍ، وَلا يُشْبِهُ الشِّعْرَ، وَأَنَّكَ لَسْتَ بِكَذَّابٍ، فَنَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَةِ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَمَا يُعْلِنُونَ مِنْ جُحُودِهِمْ ذَلِكَ".[1] وقال السعدي: "أَيْ: {فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} الدَّالُّ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ لَكَ، وَعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ. {إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} فَنُجَازِيهِمْ عَلَى حَسَبِ عِلْمِنَا بِهِمْ، وَإِلَّا، فَقَوْلُهُمْ لا يَضُرُّكَ شَيْئًا"[2] فإذا كان الله يعلم السر والعلن، فلا ينبغي للداعية أن يحمل هم مكر الناس، وما دام الله قد أحاط بكل شيء علمًا، فلا ينبغي للمؤمن أن يرهقه التفكير فيما يدبره أعداء الحق، فإن الذي يعلم السر هو الذي يدبر الأمر.

وإذا جمعنا هذه الآيات وجدنا أنها ليست متكررة، بل متكاملة، فالحزن في آل عمران سببه انتشار الكفر، وفي المائدة سببه النفاق والتحريف، وفي الأنعام سببه التكذيب، وفي يونس سببه الطعن والاستهزاء، وفي لقمان سببه إعراض الناس، وفي يس سببه المكر والكيد، فكأن القرآن يجمع كل ما يحزن الداعية في حياته، ثم يسكب على قلبه في كل مرة بلسمًا من اليقين؛ مرة

---

(١) تفسير الطبري، تفسير سورة يس، الآية (٧٦)، (١٩/٤٨٤).

(٢) [السورة: ٣١].

يذكره بأنهم لن يضروا الله شيئًا، ومرة بأن العزة لله جميعًا، ومرة بأن إلينا مرجعهم، ومرة بأن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. فاختلاف أسباب الحزن قابله تنوع في ألوان التثبيت، لكن الجامع بينها جميعًا هو رد القلب إلى الله، لأن القلب إذا امتلأ بالله صغر في عينه كل ما سواه.

وهذا هو المنهج الذي تحتاجه الأمة اليوم؛ فكم يحزن المؤمن حين يرى تسارع كثير من الناس إلى الشبهات والشهوات، أو تهوينهم من أحكام الشريعة، أو استهزاءهم بأهل الاستقامة، أو انتشار المنكر عبر وسائل الإعلام ومنصات التواصل، أو حملات التشكيك بثوابت الدين. وكل ذلك قد يورث غمًا في القلب، لكن القرآن لا يريد من المؤمن أن يكون غافلًا عن الواقع، وإنما يريده أن يكون أكبر من أن يكسره الواقع. فالحزن الذي يدفع إلى الإصلاح محمود، أما الحزن الذي يقود إلى اليأس والقعود فليس من هدي القرآن.

إن المؤمن ينظر إلى الأحداث بعينين: عينٍ ترى الواقع كما هو، فلا تخدعه الزخارف، ولا تنكر وجود الفتن، وعينٍ ترى وعد الله

فوق الواقع، فتوقن أن الباطل وإن علا فهو إلى زوال، وأن الحق وإن حورب فهو باقٍ، وأن العاقبة للمتقين. ولذلك كان النبي ﷺ أشد الناس حزنًا على الخلق، وأعظمهم ثباتًا في الدعوة، يجتمع في قلبه كمال الرحمة مع كمال اليقين.

ومن هنا فإن كلمة ﴿**لا يحزنك**﴾ ليست مجرد تسلية عابرة، وإنما هي منهج حياة؛ تُعلّم الداعية ألا يقيس نجاحه بكثرة الأتباع، ولا يقيس الحق بانتشاره، ولا يزن الأمور بضجيج الباطل، بل يزنها بميزان الوحي. فإذا رأى انصراف الناس لم ييأس، وإذا سمع طعن المبطلين لم يضعف، وإذا رأى انتشار الفساد لم يقنط، بل يمضي في طريقه ثابتًا، لأن الله الذي قال لنبيه: ﴿**لا يحزنك**﴾ هو الذي وعده بالنصر، ووعد أتباعه بالاستخلاف، ووعد عباده الصالحين بأن الأرض يرثها الصالحون.

فما أحوج القلوب في هذا الزمان إلى أن تجعل هذه الكلمة شعارها، وأن تستحضرها كلما اشتدت الخطوب، فليست البلاغة في أن يخلو القلب من الحزن، وإنما البلاغة الإيمانية أن

يكون الحزن جسـرًا إلى مزيد من الصـبر، وأن تتحول الدموع إلى دعاء، والآلام إلى عمل، والابتلاءات إلى يقين. وهكذا ربى الله نبيه ﷺ، وهكذا يربي عباده المؤمنين إلى قيام الساعة.

وقـد أنزل الله تعـالى على نبيـه ﷺ في الغـار: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾[1] فلم يكن الحزن من أبي بكر الصـديق منافياً لإيمانه أو توكلـه، وإنمـا ذكّره النبي ﷺ بمعيـة الله التي تـذهـب أثر الحزن وتسكّن القلب.

فالتوكل الحقيقي لا يعني عدم الإحسـاس بالألم أو الحزن، وإنما يعني: الاعتماد على الله، وحسـن الظن به، والرضـا بقضـائه، وعدم اليأس أو القنوط.

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في تفصيله للأعمال القلبية ما معناه: أن الحزن إذا كان يوجب ترك مأمور أو فعل محظور فهو مذموم منهيٌّ عنه، أما مجرد ما يجده الإنسـان في

---

(١) [التوبة: ٤٠].

نفســه من ألم المصـيبة فليس مؤاخذاً عليه حتى يتكلم أو يعمل به.[1]

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه: صغيّر بن محمد الصغيّر

١٩ محرم ١٤٤٨هـ

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/١٦-١٧).